جامعة عبد الرحمن ميرة
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

السنة الأولى، المجموعة 01

محاضرة رقم 02 **البلاغة العربية** **الأستاذة: عزي نعيمة**

الفصاحة:

قال الإمام الفخر الرازي:

اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد ، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أُخِذت عنه الرّغوة ، وأكثر البلغاء لا يفرّقون بين البلاغة والفصاحة ؛ والفصاحة في اللفظ ، والبلاغة في المعنى ، ويستدل على ذلك بقولهم : معنى بليغ ولفظ فصيح.

قال ابن حبّان :

الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل ، وأحسن إزار يتّزر به العاقل ، والأدب صاحب في الغربة ، ومؤنس في القلّة ، وزين في المحافل ، وزيادة في العقل ، ودليل على المروءة ، ومن استفاد الأدب في حداثته انتفع به في كبره ، لأن من غرس فسيلاً يوشك أن يأكل من رطبها ، وما يستوي عند أولي النهى ، ولا يكون سيّان عند ذوي الحجى رجلان : أحدهما يلحن ، والآخر لا يلحن.

اعتاد الدارسون وخاصة العرب منهم أن يحددوا المعنى اللغوي للمصطلحات، قبل المعنى الاصطلاحي، وهذا للصلة الوثيقة الموجودة عادة بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية للكلمات .

الفصاحة لغة:

الفصاحة في اللغة معناها: خلوص الشيء مما يشوبه ، وأصله في اللبن ، يقال : فصُح اللبن ، إذا ذهب عنه اللبأ ، أي الرغوة التي تغطي سطحه. ومعنى خلوص الشيء مما يشوبه كونه واضحا بينا ، واستعير للدلالة على البيّن من القول.

كما تُطلق في اللغة على معانٍ كثيرة؛ منها البيان والظهور، قال الله تعالى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} سورة القصص , الآية (34) . أي أبينُ مني مَنْطِقًا وأظهرُ مني قولاً .

ويقال: أفصح الصبي في منطقه إذا بان وظهر كلامه.

وقالت العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وفصح أيضًا.

وأفصح الأعجمي: إذا أبان بعد أن لم يكن يُفصح ويُبين.

وفصح اللسان: إذا عبَّر عمَّا في نفسه، وأظهره على وجه الصواب دون الخطأ.

فالمعنى اللغوي للفصاحة من خلال هذه الأمثلة هو البيان والوضوح ، فكل ما كان بيّنا واضحا فهو فصيح ، سواء أكان كلاما أم غيره.

الفصاحة اصطلاحا:

والفصاحة — في اصطلاح أهل المعاني: عبارة عن الألفاظ البيِّنة الظاهرة، المتبادَرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكُتاب والشعراء، وهي تقع وصفًا للكلمة، والكلام، والمتكلِّم.

أولا: فصاحة الكلمة:

تكون الكلمة فصيحة إن خلت من هذه العيوب:

1- **تنافر الحروف:** فهو وصف في الكلمة يوجب ثِقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان؛ بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج. وهو نوعان:

أ- **شديد** في الثقل؛ **كالظَّش** (للموضع الخشن)، ونحو: **هُعْجُع** (لنبت ترعاه الإبل) من قول أعرابي: تركتُ نَاقتي ترْعَى الهُعْجُع.

ب- **وخفيف** في الثقل؛ **كالنقنقة** (لصوت الضفادع) **والنُّقَاخ** (للماء العذب الصافي)، ونحو: **مستشزرات** (بمعنى مرتفعات) من قول امرئ القيس يصف شَعر ابنة عمِّه:

غدائرهُ مُسْتشْزِراتٌ إلى العلا تَضِل العقاصَ في مُثنًّى ومُرْسَل

ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم، والحِس الصادق الناجمَيْن عن النظر في كلام البلغاء، وممارسة أساليبهم.

2-**الغرابة في الاستعمال:** فهو كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء؛ لأنَّ المعوَّل عليه في ذلك استعمالهم.

والغرابة قسمان:

- القسم الأول: ما يُوجب حيرة السامع في فَهْم المعنى المقصود من الكلمة؛ لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة.

وذلك في الألفاظ المشتركة «كمُسرَّج» من قول رُؤبَة بن العَجاج:

ومُقْلةً وحَاجِبًا مُزَججَا وفاحمًا ومَرْسنًا مُسَرَّجا

فلا يُعلم ما أراد بقوله: «مُسرَّجا» حتى اختلف أئمة اللغة في تخريجه، فقال «ابن دريد»: يريد أن أنفه في الاستواء والدِّقة كالسيف السُّريجي، وقال «ابن سِيدَه»: يريد أنه في البريق واللمعان كالسراج، فلهذا يحتار السامع في فهم المعنى المقصود لتردد الكلمة بين معنيين.

بدون «قرينة» تُعيِّن المقصود منهما.

فلأجل هذا التردد، ولأجل أن مادة «فعل» تدل على مجرد نسبة شيء لشيء، لا على النسبة التشبيهية؛ كانت الكلمة غير ظاهرة الدلالة على المعنى فصارت غريبة.

وأما مع القرينة فلا غرابة، كلفظة «عَزَّر» في قوله تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ فإنها مشتركة بين التعظيم والإهانة، ولكن ذكر النصر قرينة على إرادة التعظيم.

- القسم الثاني: ما يُعاب استعماله لاحتياج إلى تتبُّع اللغات، وكثرة البحث والتفتيش في «المعاجم وقواميس متن اللغة المطولة».

فمنه ما يُعثر فيها على تفسير بَعْدَ كَدٍّ وبحثٍ، نحو: تكأكأتُم «بمعنى اجتمعتم» من قول عيسى بن عمرو النحوي: ما لكم تَكأكَأتُم٧ عليَّ كَتكأكُئِكُم على ذي جنَّة٨ افرنقعوا عني.٩ ونحو «مُشمَخِرٍّ» في قول بشر بن عوانة يصف الأسد:

فخرَّ مُدَرَّجًا بِدمٍ كأني هَدَمْتُ به بِناءً مُشمَخِرا

ومنه ما لم يُعثر على تفسيره نحو «جَحْلَنْجَع» من قول أبي الْهَمَيْسَع:

مِنْ طَمحة صَبِيرها جَحلنَجَع لم يحضها الجدول بالتنوُّع

3- **مخالفة القياس:** فهو كون الكلمة شاذة غير جارية على القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب، بأن تكون على خلاف ما ثبت فيها عن العُرف العربي الصحيح، مثل «الأجْلَل» في قول أبي النَّجْم:

الحمدُ للهِ العَليِّ الأجْلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القَدِيم الأوَّلِ

فإن القياس «الأجَلَّ» بالإدغام، ولا مسَوِّغ لفكهِ.

وكقطع همزة وصل «إثنين» في قول جميل:

ألا لا أرى إثنين أحسن شِيمة على حدثان الدَّهر منّي ومن جَمل

ويُستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفًا للقياس ولكنه فصيح.

لهذا لم يخرُج عن الفصاحة لفظتا «المشرق والمغرب» بكسر الراء، والقياس فتحها فيهما، وكذا لفظتا «المُدهُن والمُنْخُل»، والقياس فيهما مِفْعَل بكسر الميم وفتح العين. وكذا نحو قولهم: «عَور» والقياس عار؛ لتحرُّك الواو وانفتاح ما قبلها.

وملخص القول: إن فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس، ومن الابتذال والضعف، فإذا لحق بالكلمة عيب من هذه العيوب السابقة وجب نبذها واطِّراحها.

فصاحة الكلام:

فصاحة الكلام: سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يُبْهِمُ معناه، ويحول دون المراد منه، وتتحقق فصاحته بخلوه من هذه العيوب:

1- **تنافر الكلمات مجتمعة:** ومعناه أن تكون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها وعسر النطق بها مجتمعة على اللسان، « وإن كان كل جزء منه على انفراده فصيحًا».

والتنافر يحصل: إمَّا بتجاور كلمات متقاربة الحروف، وإما بتكرار كلمة واحدة.

(أ) ومنه شديد الثقل: كالشطر الثاني في قوله:

وقَبْر حرب بمكان قَفْر وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْب قَبْرُ

(ب) ومنه خفيف الثقل كالشطر الأول في قول أبي تمام:

كريم متى **أمدحْه أمدحْه** والورى معي وإذا ما لُمْتُه لُمْتُه وحدي

2- **ضعف التأليف:** أن يكون الكلام جاريًا على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور العلماء؛ كوصل الضميرين، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف، مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة؛ كقول المتنبي:

خَلَت البلادُ من الغزالة ليلَها فأعاضَهاك الله كي لا تحزنا

وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظًا ورتبة وحكمًا في غير أبوابه نحو:

ولو أن مجدًا أخلد الدهر واحدًا من الناس أبقى مجده الدهر «مُطعِما»

3-**التعقيد بنوعيه: اللفظي والمعنوي.**

التعقيد اللفظي: هو كون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد به بحيث تكون الألفاظ غير مرتبة على وفق ترتيب المعاني، وينشأ ذلك التعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبي بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض، وهو مذموم؛ لأنه يوجب اختلال المعنى واضطرابه، من وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها؛ كقول المتنبي:

جفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُون بهابهم شِيَم على الحسَب الأغرِّ دلائل

شرح البيت:

قوله جفخت: أي: علت، وهو فيه شيء من نقص البلاغة، وهو الغرابة؛ إذ إن هذا اللفظ لا يستعمل بهذا المعنى.

وقوله: وهم لا يجفخون بها بهم، هذا الكلام معقد، وأصل البيت: جفخت بهم وهم لا يجفخون بها؛ فـ: (بهم) متعلقة بـ (جفخت)، وبها متعلقة بـ: (يجفخون.(

والمعنى: أن هذه الشيم علت بهم، وهم لا يعلون بها؛ لأنهم أشرف منها وأعلى منها.

فإن تقديره: جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجفخون بها.

أصله: جفخت «افتخرت» بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجفخون بها.

التعقيد المعنوي: وهو كون التركيب خفي الدلالة على المعنى المراد بحيث لا يُفهم معناه إلا بعد عناء وتفكير طويل.

وذلك لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود «بأن يكون فهم المعنى الثاني من الأول بعيدًا عن الفهم عُرفًا» كما في قول عباس بن الأحنف:

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لِتَجمُدا

جعل سكب الدموع كناية عما يلزم في فراق الأحبة من الحزن والكمد؛ فأحسن وأصاب في ذلك، ولكنه أخطأ في جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقي من الفرح والسرور بقرب أحبته، وهو خفي وبعيد؛ إذ لم يُعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور «أن يقال له: جَمُدت عينك» أو: لا زالت عينك جامدة، بل المعروف عندهم أن جمود العين إنما يُكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كما في قول الخنساء:

أعينيَّ جودًا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

وكما في قول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة:

ألا إنَّ عينًا لم تَجُد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود

وهكذا كل الكنايات التي تستعملها العرب لأغراض ويغيرها المتكلم ويريد بها أغراضًا أخرى تعتبر خروجًا عن سنن العرب في استعمالاتهم، ويُعد ذلك تعقيدًا في المعنى؛ حيث لا يكون المراد بها واضحًا.

وخلاصة القول: إن فصاحة الكلام تكون بخلوِّه من تنافر كلماته، ومن ضعف تأليفه، وتعقيد معناه، ومن وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها.

فصاحة المتكلم:

فصاحة المتكلم: هي الملكة التي يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح في أي غرض كان، فيكون قادرًا بصفة الفصاحة الثابتة في نفسه على صياغة الكلام، متمكنًا من التصرف في ضروبه، بصيرًا بالخوض في جهاته ومناحيه، والملكة تحصل بطول ممارسة الكلام الفصيح، بأن يكون في بيئة عربية فصيحة، أو يمرّن نفسه بكلمات الفصحاء كثيراً، كل ذلك وللذوق مدخل عظيم.

البلاغة هي الفصاحة

لم يفرق الكثير من العلماء بين البلاغة والفصاحة , وفي رأيهم أنهما تدلان على مقصود واحد . فالإبلاغ عمّا في النفس هو الإفصاح , وأفصح عما في نفسه : أعرب عنها وأبان , وهكذا ترجع الكلمتان إلى معنى واحد من قبيل : (اتفاق المعاني على اختلاف الأصول والمباني).

قال أبو هلال العسكري : البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها , وبلّغتها غيري . ومبلغ الشيء : منتهاه . والمبالغة في الشيء : الانتهاء إلى غايته ؛ فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وقال مشيرًا إلى الصلة بين البلاغة والفصاحة : (فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد, وإن اختلف أصلاهما, لأن كل واحد منهما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له .

وفي صحاح الجوهري : أن البلاغة هي الفصاحة .